﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٦٤﴾ [الأنعام: 63 - 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِمَا قَبلَهما:

المناسبةُ بين بيانِ حُكمِ الله وحسابِه، وبين تذكيرِ مَنْ أشركَ

لَمّا بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ مردَّ العبادِ إلى اللهِ الَّذي يتولَّى أمورَهم، وله الحُكمُ عليهم، وهو المحاسِبُ لهم، جاءتْ هذه الآيةُ الكريمةُ بالتَّهديدِ والوعيدِ للمشركين الَّذين لا يُقِرّونَ بوَحدانيَّةِ اللهِ وقدرتِه إلّا وقتَ الشَّدائدِ، فيدعونَه مُتضرِّعينَ ومُسِرّين، فلمّا يكشفُ عنهم كربَهم يعودونَ لِشركهم، ومع كونِه تعالى، هو الّذي يُنقذُهم من هذه الأهوال، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى على التّوالي، إلّا أنّهم مع ذلك مشركون معه في العبادة غيرَه، ممّا لا يدفعُ عنهم شرًّا، ولا يجلبُ لهم خيرًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُنَجِّيكُم﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فُلانٌ من فُلان، وأَنْجيتُه ونجَّيتُه، قالَ تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النَّمل: 53]، وقيل: "النّجاةُ: الخلاصُ ممّا فيه المخافةُ، ونظيرُها السّلامةُ: وذكرَه الحرالّيُّ، وقال غيرُه: هو منَ النّجوةِ، وهي الارتفاعُ منَ الهلاك"[2]، قال الشّاعر:

إنْ يَنْجُ منها أبونَصرٍ فَعَنْ قَدَرٍ *** يُنجي الرِّجالَ ولَكِنْ سَلَّهُ كَيفَ نَجا[3]

والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المرتفعُ المنفصلُ بارتفاعِه عمّا حولَه،

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 2/131.
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نجو).
(3) عبد الله المعتزّ، البديع في البديع، ص: 146.

سُمّي به لكونِه ناجيًا منَ السَّيلِ، ونجَّيتُه: تركتُه بنَجْوَةٍ، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][1]. والإنجاءُ والتَّنجيةُ كلاهما بمعنَى التَّخليصِ منَ المَهلَكة[2]. وهذا هو المعنى المرادُ في الآية، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس: 103].

2) ﴿تَضَرُّعًا﴾: يُقال: تضرّعَ إلى اللّه تعالى؛ أي: ابتهَلَ وتذلّل، وقيل: أظهَرَ الضّراعةَ، وهي شدّةُ الفقرِ والحاجةِ إلى اللّه ﷻ، ومنه قولُه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾؛ أي: مُظهرين الضّراعةَ، وحقيقتُه الخشوعُ، وقولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾ [الأنعام: 43]؛ أي: تذلّلوا وخضعوا، وقيل: التّضرّعُ: المبالغةُ في السّؤالِ والرّغبة[3]. وضَرَعَ الرَّجُلُ ضَراعةً: ضَعُفَ وذَلَّ، فهو ضارِعٌ، وضَرِعٌ. وتَضرَّعَ: أظهرَ الضَّراعَةَ[4]، وهو المرادُ في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فإنَّ هؤلاء المشركين يَضعُفونَ ويَذلّونَ حالَ الشَّدائدِ الَّتي تُصيبُهم، فيُظهِرونَ الضَّراعةَ لخالقِهم، رجاءَ أن يكشِفَ عنهم ما حلَّ بهم من ضيقٍ وكَرْبٍ.

3) ﴿وَخُفۡيَةً﴾: قال الأصمعيُّ: خفَيتُ الشّيءَ أُخفيه: كتمتُه، وخَفيتُه أيضًا: أظهرتُه، وهو منَ الأضداد، وأبو عبيدةَ مثلُه[5]، وقال اللِّحيانيّ: خُفيةً: في خفْضٍ وسُكونٍ، وقال الأخفشُ: المستخفي: الظّاهرُ؛ وبه فُسّر قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾ [الرّعد: 10]، وخطّأه الأزهريُّ[6]. وخَفيَ الشَّيءُ خُفيةً: استتَرَ. والخَفاءُ: ما يُستَرُ به كالغِطاء. وخَفيتُه: أزَلْتُ خَفاه، وذلكَ إذا أظهرتُه. وأخفيتُه: أولَيْتُه خَفاءً، وذلكَ إذا سَترتُه[7]، ومنه قولُه تعالى: ﴿تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾؛ أي: وأنتُم مُستَترون، أو بمعنى: "اعتقِدوا عبادتَه في أنفُسِكم؛ لأنّ الدّعاءَ معناه العبادةُ"[8].

4) ﴿كَرۡبِ﴾: الكُرْبَةُ: بالضَّمِّ: الغَمُّ الَّذي يأخذُ النَّفَسَ، وكذا الكَربُ، تقولُ: كَرَبَه الغمُّ؛

(1) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(2) الكفوي، الكلّيّات: 1/338.
(3) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ضرع).
(4) الرّاغب، المفردات: (ضرع)، وابن منظور، لسان العرب: (ضَرَعَ).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (خفى).
(6) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خفى).
(7) ابن فارس، مجمل اللُّغة: 2/297، والرّاغب، المفردات: (خفي).
(8) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/344.

أي: اشتدَّ عليه من بابِ نَصَرَ[1]، يُقال: مَفاصِلُ مُكْرَبَةٌ؛ أي: شديدةٌ قويّةٌ، وأصلُه الكَرَبُ، وهو عَقدٌ غليظٌ في رِشاء الدّلو يُجعَلُ طرفُه في عَرقوةِ الدّلوِ، ثمّ يُشدّ ثِنايتُه رِباطًا وثيقًا، يُقال منه أكربتُ الدّلوَ، ومن ذلك قولُ الحُطيئة:

قَومٌ إذا عَقَدوا عَقْدًا لِجارِهِمُ *** شَدّوا العِناجَ وشَدّوا فَوْقَهُ الكَرَبا[2]

وبهذا يفسَّرُ قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾؛ أي: من كلِّ همٍّ وضيقٍ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

كـلّـمـا كـشَـفَ الـلـه الـكـرْبَ عـنِ الإنـسـانِ، قـابـلَ إحسانَه بالكُفرانِ

يُخبرُ بيانُ اللّهِ تعالى بامتنانِه على عبادِه في إنجائِه المضطرّينَ منهم من ظُلماتِ البرِّ والبحرِ، الحائرينَ الواقعينَ في المَهامِهِ البرّيَّة، وفي اللُّجَجِ البحريَّة، إذا هاجتِ الرّياحُ العاصفةُ العاتيةُ، أولئك الَّذين يُلجئُهم هذا الضّيقُ الشَّديدُ إلى خالقِهم، فيُفرِدونَه بالدُّعاءِ وحدَه لا شريكَ له، جهرًا وسرًّا: لئن أنجانا اللّهُ من هذه الضّائقةِ لنكونَنَّ بعدَها منَ الشّاكرين، وعندما يستجيبُ اللّهُ دعاءَهم المضطَّرَ، ويكشفُ عنهم كُربتَهم تلك، إذا هم يعودون لشِركهم وكُفرِهم[3]، ولا يفون للّه بما قالوا، ويَنسَون نِعمَه عليهم، وذلك برهانٌ واضحٌ على بُطلانِ الشّركِ، وصحّةِ التّوحيدِ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿قُلْ﴾:

المعاني الملقَّنةُ أقوَى أثرًا وآكَدُ معنًى

إنّ المعانيَ الملقَّنةَ تدلُّ على التّأكيدِ على عُلوِّ قدرِها، وعِظمِ حُجّتها وبُرهانِها، وهذا سِرٌّ عامٌّ لكلّ المعاني الملقَّنةِ في الذِّكرِ الحكيمِ.

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط: (كَرَبَ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كَرَبَ).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/130.
(4) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن: 1/260.

أثرُ الاستفهامِ التّقريريِّ في توجيهِ المعنى وتوضيحِه:

لا مَـلـجـأَ مـنَ اللـه إلّا إليه، والـــشّـــركُ به ضلالٌ مبينٌ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، صُدِّر بالاستفهامِ التَّقريريِّ الَّذي أوضحَ انحطاطَ شُركاءِ المشركين عن رُتبةِ الإلهيَّة[1]، وفائدةُ الاستفهامِ التّقريريِّ إلجاءُ الخصْمِ إلى الإقرار، كما أنّ التّعبيرَ أفادَ كذلكَ التَّهديدَ والوعيدَ للمشركينَ، بسوءِ ما انطَوَتْ عليه قلوبُهم منَ التَّحايلِ والكذبِ على اللّهِ تعالى، وهو أعلمُ ﷻ بهم، وحتّى يُقيمَ الحُجَّةَ عليهم بسوءِ صنيعِهم ونِفاقِهم في إظهارِ التَّذلُّل للّه، وإبطانِ الكُفرِ باللّه، جاءتِ الضَّمائرُ جميعُها تَصدحُ بأنَّ الخطابَ في سياقِ الآيتَين لهم لا لغيرِهم، وزادَ هذا المعنَى تأكيدًا قولُه تعالى في ذَيلِ الآيةِ الثّانية: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾.

دلالةُ الحقيقةِ والمجازِ في قولِه تعالى: ﴿مِن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾:

لا مَـــــلاذَ في الكُروبِ، إلّا إلى عَلّامِ الغُيوبِ

نُلاحظُ أنّ قولَه تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أنّ لفظَ (ظُلمات)، إمّا أن يكون حملًا على الحقيقة، وهو الأصلُ في الخطابِ، وإمّا حملًا على المجاز، وإذا كانَ الوجهُ الأوَّلَ، فيتعيَّن تقديرُ مُضافٍ؛ أي: من أضرارِ ظُلماتِ البَرِّ والبَحر ومخاوِفِهما، ممَّا ألفَه النّاسُ وعَرَفوه عنها، فاللَّيلُ إذا أرخَى سُدولَه، انتابَ السّائرين في ظُلماتِ البرِّ المخاوفُ منَ العدوِّ والآفاتِ، وأصابتْهمُ الخَشيةُ في البحرِ منَ العدوِّ والتّيهِ والغَرق[2]، وأمّا إجراءُ معنَى الظُّلماتِ على المجاز فقدِ استُعيرتْ فيه الشَّدائدُ الهائلةُ – الَّتي تُبطِلُ الحواسَّ، وتَدحَضُ العقولَ – للظُّلماتِ المُبطلةِ لِحاسَّةِ البصَر، حيث يُقالُ لليومِ الشَّديد: يومٌ مُظلمٌ، ويومٌ ذو كواكبَ. أو منَ الخَسْفِ في البَرِّ، والغَرَقِ في البَحر[3]، ولا موجِبَ ولا صارفَ لأيٍّ منَ الوجهَين دونَ الآخر؛ بل الجمعُ بينَهما ألزَمُ في سَننِ الفَصاحةِ، والَّتي تعدُّ رأسًا في البلاغةِ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/224 - 225.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/280 - 281.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.

أثرُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ في تعزيزِ المعنَى وترسيتِه:

أوّلًا: قولُه تعالى: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾ قُرِىء بالتَّخفيفِ ﴿يُنجِيكُم﴾، وقُرِىء ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بالتَّشديد[1]، والقراءاتُ واضحةٌ فإنّها مِن نجَّى وأَنْجى، فالتّضعيفُ والهمزةُ كلاهما للتّعديةِ[2]، وقراءةُ التَّشديدِ تُفيدُ التَّكثيرَ، فزيادةُ المبنَى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، ومعنَى ﴿وَخُفْيَةً﴾ أن تُبطِنوا التَّذلُّلَ، وهو في مقابَلةِ ﴿تَضَرُّعًا﴾ ومعناه: أن تُظهِروا التَّذلُّلَ[3]، وهو منَ الطّباق الخفيّ.

زيادةُ المبنَى دلالةٌ على زيادةِ المعنَى

بلاغةُ القَيْدِ بالحالِ جملةٌ فعليّةٌ، فعْلُها مضارعٌ في قولِه تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

قولُه تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ نصبٌ على الحاليَّةِ من مفعولِ ﴿يُنَجِّيكُم﴾، والضَّميرِ لـ ﴿مَن﴾؛ أي: مَنْ يُنجّيكم منها حالَ كونِكم داعينَ إيّاه. أو من فاعلِه؛ أي: مَنْ يُنجّيكم منها حالَ كونِه مَدْعوًّا من جهتِكم. وقولُه تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾؛ إمّا حالٌ من فاعلِ ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾ أو مصدرٌ مؤكِّدٌ له؛ أي: تَدْعونَه مُتضرِّعينَ جهارًا ومُسِرّين، أو تَدْعونَه دُعاءَ إعلانٍ وإخفاءٍ[4]، ومهمّةُ هذا القيْدِ تذكيرُهم بحالِ الضَّعفِ والذّلّةِ سِرًّا وجَهرًا، والتّعبيرُ بالمضارعِ بيانٌ لتكرارِ ذلك مستقبلًا، واستحضارٌ لما سبَقَ في الماضي، ولو عبَّر بالماضي لما لاءمَ المقامَ.

التّذكيرُ بحالِ المخالِفِ بالخضوعِ والذّلّةِ، إلجاءٌ له على الإقرارِ بالتّفرُّدِ بالألوهيّةِ

دلالةُ العطْفِ للألفاظِ في قولِه تعالى: ﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ عطفٌ على ﴿تَضَرُّعًا﴾[5]، ويُفيدُ العطْفُ تنوُّعَ أحوالِهم عند الدّعاءِ وقْتَ الشّدائدِ، وانقطاعِ الأسبابِ، وفي العطْفِ تناسقٌ بين ظرْفِ الدّعاءِ ﴿ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أيضًا.

إفادةُ السّياقِ حالَ الدّاعين، وهم يَتضرّعُون لربِّ العالمين

(1) قرأ بالتَّخفيف يعقوب، وقرأ الباقون منَ العشرة بالتَّشديد. محمَّد كريِّم راجح، القراءات العَشر المتواترة، ص: 135.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 4/668.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/8.

(4) العكبريّ، الإملاء: 1/246، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 2/225.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/281.

دلالةُ النّصْبِ بإرادةِ القوْلِ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾:

مَن أنجاهُ الله لا تضرُّه النّوازلُ في دُنياه

وجُملةُ ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ منصوبةٌ بإرادة القولِ[1]، والقولُ حالٌ منَ الفاعل على تقديرِ القَول؛ أي: تَدّعونَه قائلين: لئن أنجَيتَنا مِن هذه الشِّدة الَّتي نزلتْ بنا[2]، ولم تُذكرْ ألفاظُ القولِ ولا مشتقّاتُها، لانفكاكِ جهاتِ القوْلِ، ووضوحِ مَن قالَ ومَن حكى القولَ. وقد ذكرَ اللّه فحوى قولِهم في ذلك الموقفِ الّذي تطيشُ فيه الألبابُ، وتذهلُ فيه العقولُ، وينسَى الإنسانُ فيه الدّنيا ومَن فيها، ولا يبقَى له منفذٌ إلّا الضّراعةُ إلى اللّه المغيثِ، في كلِّ كرْبٍ شديدٍ.

دلالةُ أسلُوبِ القَسَمِ في قوله تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ﴾:

الضّراعةُ بالدّعاءِ في الـكُـروبِ، قرعٌ لِبابِ علّامِ الغُيوبِ

واللّامُ في ﴿لَئِنْ﴾ الموطِّئةُ للقسَم، وجوابُها اللّامُ في ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وجملةُ (نكونَنّ منَ الشّاكرين) لا محلَّ لها؛ لأنّها جوابُ القَسم لتقدّمه، حسبَ القاعدةِ، وحُذفَ جوابُ الشّرط لتأخّرِه[3]، وجيءَ بضميرِ الجمْعِ؛ إمّا لأنَّ المقصودَ حكايةُ اجتماعِهم على الدُّعاء، بحيثُ يدعو كلُّ واحدٍ عن نفسِه وعن رفاقِه، وإمّا أنَّه أُريدَ التَّعبيرُ عن الجمْعِ باعتبارِ التَّوزيع، كقولِنا: رَكِبَ القومُ خَيلَهُم، وإنَّما ركبَ كلُّ واحدٍ فَرَسًا، وهذا البناءُ على ذكْرِ جوابِ القَسم ألصَقُ بحالِهم من ذكْرِ جوابِ الشّرطِ، إذ حالُهم في تلك الكُربةِ والشّدّةِ لايليقُ معه ذكْرُ شرطٍ وجوابِه، ولكن يليقُ به القسَمُ المفيدُ توكيدَ الوعدِ بالشُّكرِ.

دلالةُ خطابِ الله بقراءةِ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾، **وقراءةِ:** ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾:

إذا قسَا القلبُ لا تنفعُه موعظةٌ، ولا تُليّنُه عِبرةٌ

وفي قولِه تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾، قرأ الكوفيّون: ﴿أَنجَىٰنَا﴾ بلفْظِ الغَيبةِ، مراعاةً لقوله: ﴿تَدْعُونَهُۥ﴾، والباقون ﴿أَنجَيْتَنَا﴾ بالخطابِ حكايةً لخطابِهم في حالة الدّعاء، وقد قرأ كلٌّ بما رُسِم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/139.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/177.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/140.

في مصحفه، فإنَّ في مصاحفِ الكوفة: ﴿أَنجَىٰنَا﴾، وفي غيرِها: ﴿أَنجَيْتَنَا﴾[1]، والقراءةُ الأولى تفضحُ العِنادَ والغطرسةَ و" تكشفُ عن تلك الطّبائعِ المنكَرةِ، وهذه القلوبِ القاسيّةِ، الّتي تأبَى أن تُخلصَ الإيمانَ، حتّى وهي في مواجهةِ الموتِ، فلا يدّعون اللّه دعاءَ مَن هو حاضرٌ في نفوسِهم، مُستَولٍ على كَيانِهم، بل يدّعونه دعاءَ الغائب، البعيدِ عنهم ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾؛ لأنّهم لا يعرفونَه، ولا يعلمون أنّه قريبٌ منهم، يسمعُ سِرّهم ونجواهم"[2]، وهذا تعسُّهم، وضلالُ سعيِهم، وبعدُهم عنِ اللّه في العمْقِ، وإنِ اضطرّهم الكربُ إلى القسَمِ والضّراعةِ إليه سبحانه. والقراءة الأخرى بالخطاب ﴿لَّئِنْ أَنجَيْتَنَا﴾ كاشفةٌ عن حالِهم وقْتَها، والأولى كاشفةٌ عن طبائعِهم الثّابتةِ.

والقراءتان تؤكّدان الخَشيةَ المزيّفةَ، الّتي ما فتِئ هؤلاء الأقوامُ يُظهرونَها، بخطاب اللّه أن يُفرّجَ كُروبَهم؛ ليكونوا منَ الشّاكرين، وهم يعلمون أنّهم غيرُ جادّين، فيما يقولون.

اعتباراتُ فهْمِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾:

في سَاعةِ الكَرْبِ تَمثُلُ المصيبةُ، وكأنّها مُبصِرةٌ قريبةٌ

قولُه تعالى: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ فيها ثلاثةُ اعتباراتٍ: الأوّلُ: باعتبارِ الظُّلمةِ المشاهدَةِ للمتكلِّم، وما يَنشأُ عنها. والثّاني: باعتبارِ المعنَى المجازيّ، وهو الشِّدَّةُ. والثّالثُ: باعتبارِ الحالةِ الّتي يُعبَّرُ عنها بلفظٍ مؤنَّثٍ، مِثل: الشِّدَّةِ أوِ الوَرطةِ أوِ الرِّبقَةِ[3].

والإشارةُ إليها بلفْظِ ﴿هَٰذِهِۦ﴾؛ يدلُّ على عِظَمِ المصيبةِ الّتي كانت ماثلةً أمامَهم، وكأنّهم يرونَها شاخصةً لأعينِهم، فهم يُبصرونَها، ويُشيرون إليها، بقولهم: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾.

(1) الثّانيةُ: ﴿لَّئِنْ أَنجَىٰنَا﴾ قراءة عاصم، وحمزة، والكسائّي، وخلف، والأولى: ﴿أَنجَيْتَنَا﴾، قراءة الباقين. يُنظر: السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 4/670، وابن الجزري، النشر: 2/259.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 4/205.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/282.

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿مِنۡ﴾ مع إمكان الاستغناء عنه لُغةً:

لو كانَ المُبتلَون مـنَ الشّاكـرين لـمَا كـانُـوا منَ المشركين

في قولِه تعالى: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، أبلغُ من أن يُقال: (لَنكونَنَّ شاكرين)، حيث أفادَ هذا السّياقُ زيادةً في معنَى الشُّكر، فهو ليس مجرَّدَ شُكرٍ، وإنَّما رسوخٌ في الشُّكرِ ودوامٌ عليه؛ أي: لَنكونَنَّ منَ الرّاسخينَ في الشُّكرِ المُداومينَ الثّابتينَ عليه؛ لأجلِ هذه النِّعمةِ، أو جميعِ النِّعمِ؛ ومن جُملتِها هذه النِّعمةُ[1].

وهناك ملمحٌ آخرُ يُفهمُ من استعمالِ الأداةِ (مِن)؛ وهو فضْلُ الجماعةِ الشّاكرين على الفردِ الشّاكرِ، لذلك قالوا: ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ إذ وجودُ الشّاكرين دليلٌ على شيوعِ الشّكرِ، واتّصافِ المجموعِ به، ولو كانت نواياهُم صادقةً - وهي لم تكن كذلك - لكان في ذلك ما يضمَنُ لهم الوفاءَ للّه بما وعدوه، ولكنّ ديدنَهم الخُلْفُ، والبَطرُ، ونُكرانُ الجميلِ.

فصْلُ جملةِ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾؛ لجَريانِها مَجرَى القولِ في المحاوَرة:

الـجـوابُ مـنَ اللـه يـقـينٌ، فلا مَـنـدوحـةَ مـنَ التّسليمِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾، أمرٌ لرسولِ اللّهِ ﷺ بتقريرِ الجوابِ للاستفهامِ السّابق: ﴿مَن يُنَجِّيكُم﴾، ولذلكَ فُصِلت جملةُ ﴿قُلِ﴾؛ لأنَّها جاريةٌ مَجرَى القولِ في المحاوَرة؛ وتولَّى الجوابَ عنهم؛ لأنَّ هذا الجوابَ لا يَسَعُهم إلّا الاعترافُ به، فهو مُتعيِّنٌ عندَهم لا مفرَّ منه، ولبناءِ قولِه تعالى في ذَيلِ الآية: ﴿ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ عليه[2].

تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ؛ لإفادةِ الاختصاصِ:

مَـن ظـنَّ أنّ غيرَ اللهِ يُنجّيه، فقد خابتْ مساعِيه

قُدِّم المُسنَدُ إليه، لفظُ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يُنَجِّيكُم﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا﴾؛ لإفادةِ الاختصاص؛ أي: اللّهُ يُنجّيكم لا غيرُه، ولأجلِ هذا صَرَّحَ بالفعلِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/225.

المستَفهَم عنه، ولولا هذا لاقتصَرَ على: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾، والمعنى: "قل: الله - وحده - هو الّذي يُنقذُكم من هذه الأهوالِ، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى، ثمّ أنتم مع ذلك تُشركون معه في العبادةِ غيرَه، ممّا لا يدفعُ شرًّا، ولا يجلبُ خيرًا"[1]، ومَن اعتقدَ أنّ غيرَ الله سَيُنجّيه منَ الهول العظيم، والكرْبِ المبينِ، فقد ضلَّ سعيُه، وخسرَ خُسرانًا مبينًا.

دلالةُ عطْفِ شِبْهِ الجُملة ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ على الضَّميرِ في ﴿مِنْهَا﴾:

ظُلماتُ البرِّ والبحرِ، مثالٌ لاتّساعِ الفتنِ والكُروبِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، نجدُ أنّ الضَّميرَ في ﴿مِنْهَا﴾ عائدٌ للظُّلُمات، وقد زادَ على تفريج الظُّلماتِ الغاشيةِ، أنّه سَيُنجّيهم من كلّ كربٍ، وهو بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾، يُفيدُ التَّعميمَ، وأنَّ الاقتصارَ على ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ بالمعنَيَين، لمجرَّدِ المثالِ[2]، والله لا يُعجزُه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء، فهو "يُنجّيهم منَ الظّلماتِ المادّيّةِ في البرّ والبحرِ، و(هو) سُبحانَه بعلْمِه الأزليِّ، يعلمُ أنّهم بعدَ النّجاةِ، سيعودون إلى ما نَهاهُم عنه من شركٍ به؛ لأنّ الإنسانَ بطبيعته، عندما يجدُ حياتَه مُكتفيةً بما يملكُه، قد يقعُ فيما قاله الحقُّ ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: 6 - 7]"[3]، وهذا يدلُّ على سَعةِ رحمةِ الله ولُطفِه، وصبرِه على عبادِه وحلْمِه.

تنوّعُ القراءاتِ القُرآنيّةِ، وثراءُ المعنى في قراءةِ: ﴿يُنجِيكُم﴾، وقراءةِ: ﴿يُنَجِّيكُم﴾:

مِن بَنِي الإنسانِ مَن لا يذكرُ اللهَ إلّا إذا ادلَهمَّ الخطبُ، واشتدَّ الكربُ

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم﴾ في ﴿يُنَجِّيكُم﴾ قراءتان[4]: الأولى: ﴿يُنجِيكُم﴾ بسكون النّون، وكسرِ الجيم. والثّانية: ﴿يُنَجِّيكُم﴾ بفتح النّون، وكسرِ الجيم المشدَّدة.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 182.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/282.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 6/3696.
(4) قرأ بالأولى: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن ذكوان، ويعقوب، وقرأ بالثّانية: الباقون منَ العشرة، يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/259.

وقراءةُ التَّشديدِ تفيدُ التَّكثيرَ[1]، فزيادةُ المبنى تدلُّ على زيادةِ المعنَى، وفي التّشديدِ منَ المبالغةِ والدّلالةِ على التّكرارِ ما ليس في التّخفيفِ"[2]، وهي بالتّخفيفِ، تعني: أنّ النّجاةَ في تلك الحالة كائنةٌ لا محالةَ، وهي بالتّشديدِ تُفيدُ المبالغةَ والتّكثيرَ في الفعل، "والمعنى: أنّ الله يُنجّيكم المرّة بعد المرّة، من تلك الظّلماتِ، ومن كلِّ كرْبٍ يَعرضُ لكم، ثمّ أنتم تُشركون به غيرَه - بعد النّجاةِ - أقبحَ الشّرك، مُخلفي وعْدكم له بالشّكرِ، حانثين بما وكّدتموه به منَ اليمينِ، مواظِبين على هذا الشّركِ مُستمرّين، لا تكادون تَنسَونَه إلّا عند ظُلمةِ الخطْبِ، وشدّةِ الكرْبِ"[3].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

الـخِـسّـةُ في الشِّركِ رُتبٌ من دونها رُتَبٌ

أفادتْ ﴿ثُمَّ﴾ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ التَّرتيبَ الرُّتَبيَّ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ إشراكَهم مع اعترافِهم بأنَّهم لا يَلجؤونَ إلّا إلى الله في الشَّدائدِ أمرٌ عجيبٌ، فليس المقصودُ المُهلَةَ[4]، وقد عبّرَ بالدّلالةِ على قُربِ النّكوصِ، والمبادرةِ إلى الشّركِ فورًا، وكأنّه يقول لهم: "إنّ الله وحده هو الّذي يُنقذُكم من هذه الأهوال، ومن كلِّ شدّةٍ أخرى، وعلى ذلك، فسُرعانَ ما تَحنثون بأقسامِكم، وتُشركون معه في العبادةِ غيرَه"[5]، فدلّت (ثمّ) على السّرعةِ والهرعِ إلى ذلك الفعْلِ المذموم.

تقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفعليّ، في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾:

مَنْ أشركَ بالله حبِطَ عملُه، وضاعَ أملُه

تقدَّمَ المسنَدُ إليه ﴿أَنتُمْ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿تُشْرِكُونَ﴾؛ لبيانِ الاهتمامِ بخبرِ إسنادِ الشِّركِ إليهم؛ أي: أنتُمُ الَّذينَ تتضرَّعونَ إلى اللهِ باعترافِكم، تُشركونَ به من قبلُ ومن بَعدُ، من بابِ قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: 85].

(1) الشَّوكانّي، فتح القدير: 2/177.
(2) رضا، تفسير المنار: 7/407.
(3) رضا، تفسير المنار: 7/407.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/283.
(5) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 1/476.

وجيءَ بالمسنَدِ فعلًا مضارعًا؛ لإفادةِ تجدُّدِ شركِهم، وأنَّ ذلكَ التَّجدُّدَ والدَّوامَ عليه أَعْجبُ. والمعنَى: أنَّ اللّٰه أنْجاكم فوعدتُم أنْ تكونوا منَ الشّاكرين، فإذا أنتم تَستبدِلونَ الشّركَ بالشُّكرِ[1]! قال الشّوكانيُّ: "ثمّ أنتم تُشركون باللّٰه سبحانه - بعد أن أحسنَ إليكم، بالخُلوصِ منَ الشّدائد، وذهابِ الكُروبِ - شركاءَ لا ينفعونَكم، ولا يضرّونَكم، ولا يَقدرون على تخليصِكُم من كلِّ ما ينزلُ بكم، فكيف وضعتُم هذا الشّركَ مَوضِعَ ما وعدتُم به من أنفسِكم منَ الشّكر؟"[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخُفية والنَّجْوَى والسِّر:

الخُفيةُ لفظٌ عامٌّ فيما لا يظهرُ، والنّجوَى لا تكونُ إلّا في الكلامِ، والسّرُ في الكلام وغيرِه

أَجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ السِّرَّ: "ما أَسرَرتَهُ في نَفسِكَ، وأَخفَى مِن ذلك: ما لم تُحَدِّثْ به نَفسَكَ، وقالوا أَقوالًا كُلّها تَرجِعُ إلى الكِتمانِ لا الإظهارِ، وكذلك ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام: 28]؛ يعني: ما يَستُرونَ، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة النمل: 25][3]، وقال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [إبراهيم: 38]، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآن، والعَربيَّةِ، والشِّعرِ"[4].

وأمّا النَّجوى فاسمٌ للكلامِ الخَفيِّ الَّذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّك ترفعُه عن غيرِه، وذلكَ أنَّ أصلَ الكلمةِ الرِّفعةُ، ومنه: النَّجوةُ منَ الأرض، وسُمّيَ تكليمُ اللّٰهِ تعالى موسى عليه السلام مناجاةً؛ لأنَّه كان كلامًا أخفاهُ عن غيرِه.

والنَّجوَى: تتناولُ جملةَ ما يُتناجَى به منَ الكلام، ولا تكونُ إلّا كلامًا، وأمّا السِّرُّ فإخفاءُ الشَّيء في النَّفسِ، ولوِ اختفى بِسترٍ أو وراءَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/283.
(2) الشّوكانّي، فتح القدير: 2/143.
(3) قرأ القرّاء العشرة - عدا حفص والكسائي - بياء الغيبة، يُنظر: ابن الجزري: النشر: 2/337.
(4) إبراهيم بن إسحاق الحربيّ، غريب الحديث: 2/847.

جدارٍ لم يكن سرًّا، ويُقالُ: في هذا الكلامِ سرٌّ، تشبيهًا بما يَخفَى في النَّفس، والسِّرُّ يتناولُ المعانيَ، وقد يكونُ في غيرِها مجازًا، تقولُ: فعلَ هذا سِرًّا، وقد أسَرَّ الأمر[1]، وسياقُ الآية الكريمة استخدمَ كلمةَ (خُفيةً)؛ لأنَّها تعني السِّتر[2]؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يَدْعونَ اللّه بحالتين: التَّضرُّع؛ أي: بضعفٍ وذُلّ، والخُفية؛ أي: وهم مُستترون بسترٍ فيما بينَهم وبينَ أنفُسِهم أو من وراءِ ستار يَستَترون به، وليس السِّرُّ ولا النَّجوى كذلك، فكانتْ كلمةُ ﴿وَخُفْيَةَ﴾ أحقَّ من غيرِها في المَوضِعِ والسّياقِ الَّذي وردتْ فيه.

الكَرْب والحُزْن:

الحُزنُ: الحزنُ، ضدُّ السّرور، وقد حزِن من باب طَرِبَ، وحَزنَهُ لغةُ قريش، وأَحزَنَهُ لغةُ تميم؛ وقُرئ بهما. تكاثُفُ الغَمِّ وغِلَظُه. مأخوذٌ منَ الأرضِ الحَزْن؛ وهو الغليظُ الصُّلبُ[3]، وأمّا الكَرْبُ فهو تكاثُفُ الغَمِّ مع ضيقِ الصَّدر، ولهذا يُقالُ لليوم الحارّ: يومُ كَرْبٍ، أي: كَرُبَ مَن فيه، وقد كَرُب الرجُلُ وهو مَكروبٌ، وقد كَرَبَه: إذا غمَّهُ وضَيَّق صَدرَه[4].

الكَربُ أقوَى منَ الحُزنِ

وبهذا يتَّضحُ أنَّ الكَربَ أشدُّ منَ الحُزن، وأثرُه في الصَّدر أقوَى من أَثَرِ الحُزْن.

والسّياقُ القرآنيُّ في مَعرِض مِنَّةِ اللّه على أولئك المشركين، بأنَّه لا يُنَجّيهم ممّا يَدْعونَ به من كشفِ الشِّدَّةِ فَحَسْبُ؛ بلِ اللّهُ يُخلِّصُهم منها ومن أيِّ كَربٍ يُسبِّبُ لهم الغمَّ أو الضّيْقَ الذي يجدونَه في صدورِهم، ويثقُل عليها، وبهذا المعنَى اتَّضحَ أنَّ استخدامَ البيانِ الإلهيِّ لكلمةِ (كَرْب) أشدُّ وطْئًا فيما سيقتْ من أجلِه، وأقْومُ قيلًا.

(1) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 533.
(2) ابن فارس، مجمل اللّغة: 2/297.
(3) الرّازيّ اللغوي، مختار الصّحاح: (حزن).
(4) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 185.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي عشر، سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 11 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-63-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 11 : سورة الأنعام من الآية 59 إلى الآية 123.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-63-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9795022 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»